الفصل الثامن

بداية الثورة ثم السقوط والانهيار

وراثة العرش الملكي

لم يكن الابن الذي ورث سنحاريب أحد قاتلي الوالد ، بل كان هو أسرحدَّون (٦٨٠-٦٦٩) ق.م وإن الظروف التي أحاطت بارتقائه العرش تصور عدداً من مظاهر المجتمع الآشوري، فقد كان ابناً حدَّد له سنحاريب وراثته وذلك كما يخبرنا في نقوشه، وليس من الحكمة أن يكون هذا ادِّعاء كاذباً.

مادام أن وارث العرش يعيش في قصر منفصل خاص بحيث كانت النوايا المعروفة حول الوراثة معروفة للجميع.

وليكن معلوماً لدى القارئ أن وراثة العرش كانت بالتسمية، فالولد البكر ليس من الضروري أن يصبح ملكاً.

ولكن وحتى الملك الحاكم لم يمتلك الصَّلاحيات المطلقة حول قضية الوراثة ما دام أن قضية تسمية ولي العهد ينبغي أن تصادق عليها الآلهة (وهذا يعني في الواقع قرار الكهنة وقبولها).

وبعد أداء القسم من قبل العائلة الملكية وممثلي الشعب.

وهنا يذكر لنا نقش أسرحدّون شيئاً عن هذه الإجراءات المُتَّبعَةُ:

"سر ولا تتراجع.

فنحن سائرون إلى جانبك.

وسوف نذبح أعداءك."

وهذه رسالة لتطمين جيش أسرحدون لشرعية قضيته:

obeikandi.com

"ولكن مع أنني كنت الأخ الأصغر لأخوتي الكبار ومع ذلك وبأمر الإله آشور- وسن- وشمش- وبعل- ونابو- وعشتار أربيل، فإن والدي الذي أنجبني قد رقاني ورفع قيمتي بين إخوتي قائلاً:

((هذا هو ابني الذي سيرثني)) وعندما طالب الحصول على رأي الإله شمس والإله أباد (وهما من آلهة الوحي) قالا له: نعم وبحزم.

قائلين: ((إنه هو وريثك)).

ولقد أظهر والدي الاحترام اللائق لكلمتيهما المهيبتين.

وبعدها جمع شعب آشور صغيرهم وكبيرهم، وكذلك إخوتي ذرية بيت والدي وقد جعل الجميع يقسمون بكلام مهيب أن يحموا حقي في الوراثة، وذلك أمام الإله آشور وسِن وشمش ونابو وهم آلهة آشور، والآلهة الذين يسكنون في السماء والأرض.

وفي شهر سعيد وفي يوم سعيد وطبقاً لأوامرهم (أي أوامر الآلهة) دخلت القصر الذي يوحي بالرهبة حيث يوجد روح وعطر الملكية.."

ولكن لم تجْرِ الأمور كما كان يشتهي سنحاريب فقد اضطر أسرحدون أن يناضل لأجل وراثة العرش.

وعندما حدث اغتيال سنحاريب كان قائد الجيش أسرحدون متمركزاً في مكان ما في القرب، ولربما ظن البعض أن عملية الاغتيال قد تم توقيتها في غياب ولي العهد.

ولكن أسرحدُّون قد أبقى جيشه في تمام الحيطة والاستعداد لخوض المعركة فقد استطاع أن يتحرك باتجاه آشور بالسرعة الفائقة دون التوقف لإجراء الترتيبات والتفتيشات والتزود بالمؤن، وكان تأخره الوحيد هو الطلب من الآلهة أن تمنحه وحياً.

وجاء هذا الوحي في وقته كما يلي:

"سر ولا تتراجع

فنحن نسير إلى جانبك

وسوف نذبح أعداءك."

وكانت هذه الرسالة لتجعل جيشه واثقاً بقضيَّته ولبذر الشكوك بين أفراد عساكر منافسيه.

ولقد واجهته عساكر قتلة الملك في منطقة الخابور الأعلى وقد حدثت اشتباكات حادة.

كانت الروح المعنوية لدى قتلة الملك وعساكرهم الذين تورطوا في حرب أهلية ضد شخص يعلمون علم اليقين أنه ولي العهد الذي وافقت الآلهة على تنصيبه.

كانت أرواحهم المعنوية منخفضة وفي منتصف المعركة انتشرت صيحات تقول: هذا هو ملكنا.

وهكذا انتقل عساكر قتلة الملك إلى أسرحدون وأظهر ممثلو الشعب الطاعة فأصبح العرش عرشه بالتأكيد:

عطف المشيئة الإلهية على بابل

كان أسرحدون ينتمي إلى الجماعة المتعاطفة مع بابل في داخل آشور، وقد كرَّس جهود الناس بها وموارد مالية لإزالة الأضرار التي ألحقها والده ببابل، فقد كانت هناك المشكلة الأساسية التي مفادها: إن الآلهة وضعت مدينة بابل تحت اللعنة لمدة سبعين عاماً.

وكان من الواجب إزالة هذه اللعنة، وهذا النوع من الأوضاع هو تفسير لتغيير الخطط الإلهية ووضع الكهان في موقف ليتخذوا فيه دورهم الحقيقي.

فقد فسَّر الكهنة الموقف بقولهم:

ومع أنه في أوقات سابقة لقد حكموا باللعنة على بابل مدة سبعين عاماً، إلا أن الإله الرحيم مردوخ وهو رئيس الآلهة في المدينة قد عدل من شدة هذا الحكم، وذلك بنقل الحروف المسمارية لتصبح المدة إحدى عشرة سنة.

obeikandi.com

وهكـذا، فقـد انتهـى الحرمـان بالنـسبة إلى بابـل في أول سـنة مـن حكـم أسرحدون.

ولقـد حـدث أن أتلفـت بابـل قنـوات الميـاه بحيـث أصـبحت مكانـاً يكثـر فيـه القـصب والأجمـات، ولهـذا فقـد عمـد أسـرحدون إلى تحويـل الميـاه وقطـع النباتـات البريَّة التي كانت تسيطر على المدينـة، وبعـدها تقـدم لإعـادة بنـاء المدينـة وأسـوارها ومعبد مردوخ العظيم وهو معبد الساجيلا.

ولقـد وضـع أسـرحدون سلَّة فـوق رأسـه كـأنـه أحـد العمـال، ووضـع قالبـاً مـن الغضار، وقد أعـاد السـكان المواطنين الـذين هربـوا، وأعـاد لهـم أراضيهم، وأعـاد للمواطنين حقوقهم وامتيازاتهم وأعفاهم من الضرائب.

ولقـد أعـاد الملـك عـادة تقـديم القـرابين الدينيـة في معبـد الـساجيلا، وأعـاد الاحـترام لطبقـات عديـدة مـن خدمـة المعبـد مـع حـدوث نفـس الإجـراءات في المـدن الأخـرى في بابـل، وأعيـدت الامتيـازات القديمـة للمـواطنين في تلـك المـدن، لقـد ساعدت هذه السياسة الرامية إلى إعادة العطف على بابل.

خـدمت هـذه الـسياسة مـصالح آشـور، ومـع أن الكلـدانيين قـد أظهـروا بعـض الاضـطرابات إلا أن أسـرحدون وبعـد أن قابـل هـذه الاضـطرابات بحـزم، اسـتطاع استبعاد الزعماء المعاديين ووضع آخرين من قبائلهم من الذين كـانوا قـادرين على قبول التبعية لآشور.

سيطرة الميديين

لقـد أولى أسـرحدون اهتمامـاً متزايـداً بالميـديين، وقـد سـاعد علـى دوام اسـتقرارهم، وذلـك بتقـديم مـساعدات عـسكرية لزعمـائهم ضـد أي حركـات تحرُّريَّة.

وكان الميديون لا يزالون قبليين في أنظمتهم، مع أنه كان لديهم بعض المدن، وكـانوا منتـشرين في إيـران الـشمالية، وكـانوا لـذلك أقويـاء جـداً، وقـد كـانوا يمثلون حلفاء مفيدين بالنسبة لأسـرحدون ضد عيلان، وحصناً إضافياً على طول

obeikandi.com

الحدود ضد أورارتو، وضد شعوب جديدة، نعرف شعبين منهم باسم السيمريين والاسكنديين (وكانوا متواجدين في شمال إيران فضلاً عن الأناضول) وكانوا مندفعين جنوباً خارج أروميا.

وقد انعكس اعتراف أسرحدون بالميديين وتعاظم أهميتهم السياسية في المعاهدات التي عقدت مع الأمراء الميديين الموالين لآشور، واحتوت هذه المعاهدات على تعهد هؤلاء الأمراء بدعم ترتيبات الملك بالنسبة لوراثة العرش بعد موته.

وباختصار، كانت ترتيباته تقضي أنه نصب ولدين من أولاده خلفاء له على العرش وبمباركة الآلهة أي: عرش آشور، وعرش بابل وأعلن ذلك رسمياً خلال اجتماع حدث في نينوى عام (٦٧٢ ق. م).

وأعلن أن أحد ولديه وهو آشور بانيبال أصبح ولي العهد في آشور، والثاني شماش -شم- أوكين أعلن ولياً للعهد في بابل، وقد ألزم الولاة المحليين والأمراء التابعين تحت أداء القسم أن يدعموا هذا الاتفاق الذي كانت شروطه كما يلي:

(عند موت أسرحدون ملك آشور فسوف تنصِّبون ولي العهد آشور بانيبال ملكاً، ولسوف يمارس الملك السيادة عليكم وسوف تقومون بحمايته في الريف وفي المدن، ولسوف تحاربون حتى الموت من أجل حمايته، وإذا حدث ومات أسرحدون في حالة كون أبنائه صغاراً فلسوف تساعدون آشور بانيبال على استلام ولاية العهد وعلى استلام مهام عمله كملك آشور، ولسوف تساعدون شاماش - شم- أوكين أخاه النِّد له وهو ولي عهد بابل إن أصبح ملكاً لبابل).

ومن الواضح أن أسرحدون كان يأمل أن يتجنب تكرار حدوث الحرب الأهلية التي هددت اعتلاءه على العرش، ولكننا سوف نرى أن خطته قد فشلت على المدى البعيد.

السلام الآشوري في الغرب

في الشمال الغربي كانت آشور تدفع أماكن سيطرتها بالتدريج إلى ما وراء سورية وكيليكيا إلى داخل آسيا الصغرى، ولكن هذا التقدم واجه تحدياً أتى من قبل السيمريين والآسكنديين (وهم الجومر والأشكيناز في التوراة).

ولم تكن كيليكيا راضية عن هذه الأحوال، فقامت صيدا وهي إحدى المدن الفينيقية المرتبطة مع كيليكيا بمصالح بحرية مشتركة، والتي أساءت فهم القوة الآشورية بالتمرد على آشور.

ولقد نهبت صَيدَا وأصبحت أراضيها عبارة عن ولاية آشورية.

ولكن، كانت آشور لا تزال تفضل الحكم غير المباشر، إذا كان ذلك ممكناً، لأن ملك منطقة صور المجاورة قد بقي موالياً وخاضعاً لآشور، ولذلك فقد تُرك له الحكم وبعض المستوطنات البعيدة التي كانت تابعة لصيدا أو أضيفت هذه لمملكته.

وفضلاً عن صيدا فلم تُظهر سورية أو فلسطين أي مقاومة أو اضطرابات لآشور.

وقد استطاع أسرحدون أن يكلف مجموعة من الملوك الخاضعين له لتقديم مواد لازمة لإعادة بناء قصره.

وتشمل قوائم أسماء الملوك هذه ملوك حور ويهوذا أو حيدوم وموآب وغزَّة وعسقلان وإيكرون وبيبلوس وعمون وأشدود، فضلاً عن أراضي منطقة تدعى (يدنانا) في منتصف البحر والتي ربما كانت قبرص التي أصبحت الآن جزءاً من الإمبراطورية الآشورية.

وكان اسم ملك يهوذا (مناسَّا) وقد ذكر في التوراة أن مناسَّاً قد أخذ إلى بابل على يد قواد جيش آشور، ولكن أطلق سراحه فيما بعد، ولم يؤلّف كتاب أيام الأخبار المذكور في التوراة إلاَّ بعد أن أصبحت بابل عاصمة إمبراطورية بدلاً عن نينوى، وذلك ربّما فسَّر ذكر بابل بدلاً من نينوى.

obeikandl.com

ومن الممكن أن تكون هذه القصة أساساً لذكر زيارة مناسا لآشور إطاعة لأمر أسرحدّون وطلبا منه لإتمام عمليات بناء قصره.

وإلى الشرق والجنوب من الدول الواقعة في شرق الأردن (وهي عمون وموآب وصيدا ورفح) التي كانت خاضعة خضوعاً تاماً لسيطرة الآشوريين تقع الصحراء بما فيها القبائل العربية، وكان لهذه القبائل أهميّتُها بالنسبة لآشور، وذلك لسببين وبصورة خاصة فقد كان العرب مسيطرين على تجارة البخّور والتوابل الآتية من جنوب بلاد العرب.

وكان العرب هم وحدهم القادرين على التفاوض مع قبائل صحراء سيناء فيما بين جنوب فلسطين ومصر، وكانت آشور على اتصال مع عرب الصحراء منذ حُكم تغلات - بلاسر الثالث، وكانت تُوسِّع نفوذها بالتدريج إلى داخل الصحراء.

وقد تابع أسرحدون هذه السياسة، بل زاد من سيطرة آشور عن طريق التدخل فيما بين الأخصام المتنافسين للحصول على السيادة القبلية وذلك لدعم المرشح الراغب في قبول السيادة الآشورية.

غزو مصر

وبعد أن أصبحت فلسطين تحت السيطرة الآشورية، وبعد أن أصبح عرب الصحراء تحت قيادة زعماء موالين لآشور، قام أسرحدّون بتنفيذ توسيع كبير للإمبراطورية، فلقد كانت هناك علاقات تجارية بين آشور ومصر منذ عهد قديم، ومنذ حكم (تغلات بلاسر الثالث) عندما وطدت سيطرتها على الساحل الفلسطيني حتى غزة، ولقد كان هناك خطوط حدودية مع مصر مع أنها تمر ضمن حاجز عريض وهو الصحراء.

وكان أحد العوامل في هذا الصدد ربما ظهور أُسرة عدوانية جديدة في مصر من أصول مصرية جنوبية، كانت هذه الأسرة تحاول زيادة نفوذها بين المدن الساحلية في فلسطين وقد تجسَّدت هذه السياسة بحدوث تمرُّد في صور التي

obeikandl.com

كانت موالية وتابعة أمينة (لأسرحدون) لقد بدأ الهجوم على مصر عام (٦٧٥ ق.م) ولقد صادف هذا الهجوم عدة صعوبات ونكسات.

وهناك نقش يروي حادثة الهجوم النهائي الناجح عام (٦٧١ق.م) ولكنه يقدم فكرة عن المشكلات، ويقول الملك: إنه قد وصل إلى رابيحو وهي على جانب وادي مصر (العريش الآن) حيث لا يوجد أي نهر ولذلك فقد اضطر أن يحصل على الماء لعساكره من بئر بواسطة الحبال والسلاسل.

وقد استخدم الجمال في مواصلاته والتي قدمها له حلفاؤه من ملوك العرب، ووجد أن المسيرة صعبة لاسيما وأنها كانت واقعة خلال الكثبان الرملية مدّة خمسة عشر يوماً، ومنطقة تحتوي على أفاعٍ ذات رؤوس مزدوجة وهي مميتة، وقد استغرق معهم السير شهراً كاملاً لقطع تلك المسافة فيما لو كانت الأرقام دقيقة.

وعلق الملك بقوله: إن الإله مردوخ قد خفَّ لمساعدته وحفظ حياة جنوده وهذه دلالة على مروره بأيام صعبة عندما بدأ يفكر أن جيشه لا يستطيع التقدم.

وعندما وصل إلى أرض مصر هزم جيش فرعون (تارقا) وبعدها حاصر واستولى على (ممفيس) العاصمة التي تبعد حوالي عشرين ميلاً جنوب القاهرة (اليوم) وبعد هذا النجاح تقدَّم أمراء مصر السفلى للاعتراف بسيادة (أسرحدون) الذي عيَّن موظفين آشوريين في الإمارات المحلية، وأعلن (أسرحدون) نفسه ملكاً على مصر السفلى والعليا والحبشة، ولكن هذا كان إدّعاءً فارغاً، إذ ما كان الجيش الآشوري يغادر أرض مصر حتى تقدم الفرعون (تارقا) وأعاد احتلال (ممفيس).

هذا وقد عاد (أسرحدون) في عام (٦٦٩ ق.م) بحملة جديدة على مصر ولكنه مات وهو في الطريق إليها.

آشور بانيبال

لقد نجحت خطة (أسرحدون) بالنسبة لوراثة العرش بحيث بقي آشور بانيبال في نينوى (وشماش - شم - أوكين) في بابل، ولكن كان لكلا المملكتين مشكلاتهما، وقد تضافرت التوترات الناتجة فعملت على جَر آشور إلى حرب أهلية.

إن معرفتنا عن حكم آشور بانيبال متقطعة، فمع أنه قد ترك نقوشاً كثيرة، إلا أن الطريقة التي رتَّب بها كاتبه هذه النقوش بحيث كان يحدد الحملات في منطقةٍ معيَّنة مع أنها كانت قد حدثت في أوقات مختلفة، كل هذا ترك الفوضى في تسلسل الحوادث، وهناك بعض الباحثين الذين يعيدون ترتيب هذه الحوادث بطرق مختلفة وبالتفصيل.

كانت مشكلة أسرحدون العاجلة هي عدم إكماله لفتح مصر، ففي عام (٦٦٧ ق.م) استطاع إرسال جيش آشوري قوي إلى هناك واحتُلَّت ممفيس مرة ثانية، ولقد عمد بعض الأمراء الشماليين بقيادة (نخو) أمير (سايس) على سحب اعترافهم وولائهم لآشور والانضمام إلى (تارقا) ولكن استطاع الجيش الآشوري أن يعتقل قائد الفتنة.

ولكن في بلاد كمصر كان الأمراء المصريون ضروريين للقيام بالإدارة الصعبة للبلاد، ولذلك فقد عومل (نخو) بشكل رحيم، فأخذوه إلى نينوى وأثقلوه بالهدايا والرعاية وبعدها - بعد أن أقسم يمين الولاء لآشور سمح له بالعودة إلى مصر، وقد أُمِر الإداريون الآشوريون في مصر أن يقدموا (لنخو) الدعم العسكري الضروري، وعُين ولده الذي كان يحمل اسماً آشورياً في مركز إداري رفيع المقام.

استمرت السلالة المصرية الجنوبية في محاولاتها للحكم في مصر العليا، فقام خليفة (تارقا) بحصار الحامية الآشورية في ممفيس عام (٦٦٤)ق.م وقد جلب بعض سُعاة البريد هذا الخبر إلى نينوى، حيث سارع أسرحدون إلى دخول مصر ثانية على رأس جيشه عام (٦٦٣ ق.م) فطرد المحاصرين من ممفيس ثم طاردوهم حتى

obeikandl.com

العاصمة القديمة الجنوبية طيبة التي استولى عليها الآشوريون ونهبوها، وحملوا كنوزها وأهلها إلى آشور.

وتذكر التوراة قصة مدينة طيبة مع استخدام اسمها العبري (نو-آمدن) في سفر ناحوم (١٠-٨٣).

وهذا يدل على مدى اتساع آشور التي وصلت إلى الذروة في الجنوب الغربي، وقد شهدت نفس تلك الفترة القصيرة توسع آشور في الشمال الغربي في آسيا الصغرى، حيث حصلت غزوة سيميرية وأجبرت بعض الحكام الوطنيين على الالتجاء إلى حماية آشور، وكان من بين هؤلاء الحكام (جايجس) حاكم ليديا في جنوب آسيا الصغرى والذي يخبرنا آشور بانيبال أن إله هذا الحاكم وجَّهه في أحد أحلامه أن يطلب مساعدة عسكرية من آشور بانيبال ضد السيميريّين.

وتدل الحوادث أن طلبه قد لُبِّي نظراً لأن (جايجس) تمكن من إلحاق هزيمة في صفوف السيميريين، وبعد ذلك أرسل بعض الغنائم التي احتوت على حاكمين من الولاة إلى نينوى عام (٦٦٣)ق.م.

ولكنه كان شهر عسل قصير الأمد، فقد واجهت آشور اضطرابات ضارية في مصر، إذ إنه وقبل نصف قرن من الزمان عمد أحد القوّاد الآشوريين إلى تحذير حكومة أورشليم بقوله:

((لا تثق بأي شخص مصري)).

إذ إن تعبيره كان أكثر دراماتيكية كقوله:

((الآن أنا اتّكَلْت على عكاز من قصب مكسور –أي: على مصر- والتي إذا توكأ رجل عليها فإنها سوف تدخل في كفّه وتثقبها، وهكذا فرعون ملك مصر بالنسبة إلى جميع من يثقون به)).

لكن الآشوريين أهملوا هذا الإنذار، وبعد موت (نخو) الأمير الأعلى لمصر الشمالية في عام (٦٦٣) ق.م فقد عيَّنوا بدلاً عنه ابنه (بسامي تيكوس) الذي كان

المسؤول الآشوري الأعلى والذي كان شديد الولاء للآشوريين حتى كان يحمل اسماً آشورياً.

ولكن في بداية عام (٦٥٠ ق.م) بدأ (بسامي تيكوس) في تأكيد استقلاله المحلي، وذلك بطرد الحامية الآشورية التي تُركت في مدن مصر، وكان لهذا العمل أصداء كثيرة، إذ يخبرنا (هيرودوتس) وهو المؤرخ اليوناني في القرن الخامس ق.م والذي ولد في غرب آسيا الصغرى:

إنه وفي زمن (بسامي تيكوس) كان القراصنة من آسيا الصغرى واليونان ينْزلون إلى مصر، ولكن (بسامي تيكوس) هذا قد استطاع أن يستميلهم لخدمته، وإن هؤلاء القراصنة المزعومين ربما كانوا أتباع (جايجس) حاكم ليديا، ولقد كان لمصر وآسية الصغرى الجنوبية مصالح تجارية مشتركة.

وأخيراً أصبح كل من (بسامي تيكوس) و(جايجيس) أتباعاً مخلصين لآشور، ولكن حالما سارع (بسامي تيكوس) بتخليص مصر من النفوذ الآشوري، فقد كان (جايجس) مجبراً أن يختار ما بين مصر وآشور، فقد اختار أن يساعد مصر.

ولذلك فقد لَعَنَه (آشور بانيبال) بصفته ناكراً للجميل، وأعلن أن دعم آشور له لن يستمر، وبذلك فقد أفسح المجال أمام السيميريين للقيام بهجوم جديد نحو عام (٦٥٢)ق.م عندما حصلت غزوة ضد مملكة جايجس مما سبب هزيمة مملكة جايجس وقتل ملكها.

وفي عام (٦٥١) ق.م استطاع (بسامي تيكوس) إجلاء الآشوريين من مصر، وهكذا وبنشوء الاضطرابات في أمكنة أخرى لم تعد آشور قادرة على إبقاء الإمدادات الضرورية لجيشها للبقاء في مصر مع وجود خط طويل صعب من المواصلات إلى هناك.

إبادة عيلام

كانت المشكلات الرئيسية في الشرق حيث كان المركز الرئيسي للاضطرابات هو عيلام.

وهي المملكة التي عَمَّرت نحو ألف سنة في جنوب غرب إيران، في هذه المنطقة كان هناك في هذه الفترة عاملان هامان سببا الاضطرابات وعدم الاستقرار:

أولهما: وجود عدد من أفراد العائلة الملكية الطامحين المتنافسين على السلطة.

وثانيهما: تعرض الملوك العيلاميين إلى الموت المفاجئ (وهذا يدل على وجود مرض وراثي في الأسرة الحاكمة، وربما لأن ملوك عيلام كانوا يتزوجون من أخواتهم) والحقيقة إن عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي يؤذي العلاقات التجارية، ومن الممكن أن ينتشر عبر الحدود.

ففي بداية حكم (آشور بانيبال) عمل الملك على نشر الاستقرار في عيلام، فقد ذكرت الإجراءات التي اتخذها لمساعدة ملك عيلام في أيام الشِدَّة ويقول:

"عندما حَدَثَتْ المجاعة في عيلام وازداد القحط وقلة الطعام أَمَرت بإرسال الذرة إليه للإبقاء على حياة شعبه، وقد أمسكت بيده (لدعمه) وقد أعدت له جميع الأشخاص الذين هربوا من بلادهم أثناء المجاعة والتجؤوا إلى آشور مدة حتى هطلت الأمطار في بلاده، ونتج عن ذلك زيادة المحاصيل الزراعية، وهؤلاء الأشخاص الذين التجؤوا إلى آشور قد أعدتهم إليه."

ومع ذلك وعلى الرغم من مساعدات آشور بانيبال الكريمة عمد ملك عيلام (أورتاكس) إلى التجاوب مع بعض مبادرات الزعماء القبليين في بلاد بابل واستفاد من انشغال آشور في الحرب مع مصر فشنَّ هجوماً على بابل عام (٦٦٥ ق.م).

ولذلك فقد اضطر آشور بانيبال أن يرسل جيشاً إلى الجنوب ليصد (أورتاكس).

obeikandl.com

وهذا مما ساهم في إساءة العلاقات ما بين آشور بانيبال وأخيه، إذ اتضح للأخ (شاماش - شم - أوكين) أنه على الرغم من توليه مملكة بابل فقد كانت أمور الدفاع عن تلك البلاد منوطة (بآشور بانيبال).

وأما (أورتاكس) فقد كان شأنه شأن الملوك العيلاميين الآخرين، فقد مات ميتة فجائية غير منتظرة، ولهذا فقد استولى على العرش أحد أبناء عمه الملكيين وهو: (تيومَّان) الذي عمل على تأمين مركزه وذلك بمحاولة قتل ابني الملكين السابقين، وقد عمد هؤلاء الأمراء الخمسة والثلاثون الآخرون من أفراد العائلة المالكة بصحبة بعض النبلاء إلى الفرار طلباً لحماية آشور بانيبال، الذي وفَّر لهم الحماية والملجأ وذلك على الرغم من طلب (تيومَّان) القضاء عليهم.

وهنا نرى دلالات طريفة متزايدة لأهمية البروتوكولات، إذ إن آشور بانيبال شعر بضرورة صياغة سبب لرفض طلب (تيومَّان) بالقضاء على أولئك الأمراء.

والآن نصطدم بمشكلة إعادة الترتيب التاريخي لنقوش آشور بانيبال التي لم تكن مرتبة ترتيباً تاريخياً كما لاحظنا، والتي توحي أن الحملة التي قُتِلَ فيها (تيومَّان) حدثت بعد الفترة التي كان ينبغي فيها القضاء على منافسيه على عرش عيلام.

ولكن السجلات العيلامية تدل على أن حكم (تيومَّان) قد دام حوالي عقد من الزمن مع سعيه للتوسع الدائم في إيران.

والحقيقة، إن السجلات العيلامية هي أكثر مصداقية وذلك يَظْهَر من الشعور بالمرارة التي تسيطر على (آشور بانيبال) عندما يتكلم عن (تيومَّان) وهو الملك العيلامي الذي كان آشور بانيبال يكرهه كراهية مطلقة.

إن رد الفعل الذي أظهره آشور بانيبال ينبغي أن يكون قد حدث خلال فترة زمنية لا بأس بها، وليست عبارة عن أشهر قليلة من الاحتكاك مع (تيومَّان).

وأخيراً وفي أواخر صيف عام (٦٥٣ ق.م) تلقى آشور بانيبال، وكان مقيماً في أربيل، أخبار تعبئة جيش (تيومَّان) ضده.

وهكذا عمد آشور بانيبال إلى الاستغاثة بالإلهة عشتار في أربيل وهي آلهة الحرب، وقد تقدمت جيوشه إلى داخل عيلام عن طريق يمتد خلال الدير، بينما تقهقر (تيومَّان) والتجأ إلى عاصمته (سوزا) ثم حاول الهرب ولكنه كان سيئ الحظ، وهنا يذكر آشور بانيبال ما حدث:

لقد هرب (تيومَّان) ملك عيلام حفاظاً على حياته واختبأ في إحدى الغابات، ولقد انكسر عمود العربة -عربته الملكية- وانقلبت العربة عليه، وقد قال (تيومَّان) لولده وهو في غاية اليأس:

((ارفع القوس)) -ويُظّن أنه يعني أحد أجزاء العربة المكسورة التي كان الملك محصوراً تحتها-.

وقد حاول ابن (تيومَّان) مساعدته ولكنه أمسك به وضربت عنقه.

وقد أخذ رأس (تيومَّان) إلى آشور بانيبال الذي نفَّث كراهيته بضرب الوجه الميت والبصق عليه.

ثم إنه احتفل بنصره بإقامة وجبة احتفالية رائعة مع زوجته، وهذه الوجبة تظهر في اللوحة النافرة حيث يظهر وجه (تيومَّان) متدلياً من شجرة.

لقد بقيت عدة زُمَر وعصابات قبلية مناوئة في بابل، وخلال طيلة هذه المدة كانت هناك دسائس دائمة بين هؤلاء الناس والعيلاميين والتي كانت تسبب عدم الاستقرار والرفض للإدارة الآشورية في بابل تحت إمرة (شاماس- شم- أوكين).

وإن وجود العساكر التي كانت تحت قيادة آشور بانيبال والمخصصة للعمل في بابل كانت سبباً في تعكير العلاقات الودية بين الأخوين.

ومع ذلك فقد بقيت العلاقات الودية بين الأخوين مستمرة حتى عام (٦٥٤ ق.م) وذلك لأنه طبقاً لأحد التواريخ عام (٦٥٥ ق.م) -يقال: إن فراش بعل قد عاد من آشور إلى بابل.

وأيضاً في السنة التالية أعيدت عربة بعل وجميع الأشياء اللازمة وقسم من الغنائم المأخوذة قبل خمسة وثلاثين عاماً عندما نهب سنحاريب بابل.

obeikandi.com

ولكن وتحت سلطة ملكين ضعيفين كالدمى كان آشور بانيبال قد نصبهما بالتوالي ملك ونائب الملك في عيلام، زادت المؤامرات والدسائس بين مختلف الفئات المتناحرة في عيلام وبابل.

وهكذا وفي عام (٦٥٢ ق.م) نشبت الحرب الأهلية، وعندها هاجم (شاماش، شم، أوكين) الذي كان يدعمه الجيش العيلامي الحامية الآشورية في (كُوثاه).

وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها (شاماش، شم، أوكين) ليثير اضطرابات ضد آشور في بابل إلا أن بعض المواطنين في المدن الكبيرة قد استمروا في دعم آشور.

هذا وقد هزم الآشوريون جيش عيلام وأخرجوا القوى الكلدانية التي كانت موجودة في جنوب بابل والتي كانت تدعم (شاماش- شم- أوكين)، وبعد ذلك استلموا زمام المبادرة وذلك بوضع (بورشيبا) وبابل التي يحكمها (شاماش- شم- أوكين) تحت الحصار.

ولم يصل أي دعم (لشاماش- شم- أوكين) من عيلام حيث نشبت الحرب الأهلية بين مطالبين متنافسين على العرش.

وقد كان (شاماش- شم- أوكين) محصوراً في بابل ولكنه دافع عن تلك المدينة حتى أجبرته المجاعة على الاستسلام عام (٦٤٨ ق.م).

ولقد ساءت أحوال المدينة أخيراً بحيث إن المواطنين أكلوا لحوم أولادهم وبناتهم الموتى نظراً لشدة جوعهم.

ولقد مات (شاماش- شم- أوكين) بعد حدوث حريق في قصره، وربما مات منتحراً مع أن ذلك لم يثبت رسمياً.

وقد كان آشور بانيبال حريصاً أن تجري حفلة دفن مناسبة لأخيه وزوجته في قبر بعد أداء الطقوس المناسبة، ولكن وفي هذه الأثناء أمسك بعدد من المتمردين الآخرين حيث قتلوا وقطعت أجسادهم لتكون طعاماً للكلاب والخنازير والذئاب، والطيور الجارحة وطيور السماء وأسماك البحر العميق.

obeikandi.com

وفي أثناء حكم آشور بانيبال الطويل الأمد فقد حدثت اضطرابات قبلية من الجنوب في بابل التي كان يحكمها ملك ضعيف يدعى (كاندالانو) ولم يكن هذا أكثر من واجهة تمثل الحكم المباشر لآشور هناك.

وأما في عيلام فقد أصاب تيومان بعض النجاح في إحلال الاستقرار، ولكن بعد تحديه الأخرق لآشور وموته بعد ذلك حصل نزاع أهليٌ بين مدَّعين متنافسين على السلطة ووراثة العرش، الأمر الذي أنتج الفوضى في البلاد.

ولقد قام (آشور بانيبال) بعدة تدخلات بالنسبة لوراثة العرش بين المدعين العيلاميين الذين كانوا يطلبون حمايته لمصالحهم، ولقد كانت الأمور معقدة بسبب الفروق الاجتماعية ما بين آشور وعيلام.

فبينما كان الحال في آشور أن ينتقل الحكم الملكي من الأب إلى الابن، إلا أنه بالنسبة لعيلام كانت الوراثة تتم من حيث الأم بحيث كان أخوال الملك باستطاعتهم المطالبة بوراثة العرش دون أبنائه.

وهكذا فإن أي وريث شرعي للعرش طبقاً للمبادئ العيلامية من الممكن عدُّه مغتصباً للسلطة عند الآشوريين.

بينما كان الرجل هو الوريث الواضح والمنظور من وجهة نظر (آشور بانيبال) ربما كان له أخوال لهم الحق بالادعاء بالوراثة من وجهة النظر العيلامية.

هذا ولم تحدث أي حركات لإعاقة الاستقرار الكامل حتى زمن آشور بانيبال، ولم يكن من المحتمل إن يحدث ذلك نظراً لأن مملكة عيلام الهرمة لم تكن تعاني من انقساماتها الداخلية فحسب، بل أيضاً من التوترات الناتجة عن اندفاع شعوب جديدة من الشمال كانت تحاول الاستيطان وهم الفرس.

وكان الوضع في عيلام يتمثل بتهديدات مستمرة لبابل، ولم تكن الفوضى في عيلام سبباً في تعطيل التجارة مع المناطق في الشرق فحسب، بل أيضاً عملت حالة الفوضى في عيلام لجعلها قاعدة مرموقة بعيدة عن السيطرة الآشورية للقبائل الكلدانية التي كانت تبغي الاستقلال في بابل.

لقد أجبرت هذه الحالة في عيلام آشور بانيبال على اتخاذ خطوة خطيرة تؤدِّي إلى تخريب البلاد بكاملها، وهذا استغرق القيام بحملتين، والمحتمل أن يكون تاريخ الأولى قبل منتصف عام (٦٤٠ ق.م)، فقد زحف الجيش الآشوري خلال عيلام مخرباً مدنها الرئيسية واستولى على العاصمة ونهبها وهي (سوزا) ولم يُظهر جنود آشور بانيبال أيَّ احترام للمعابد التي دُنِّست ولا للآلهة أو أدوات العبادة التي أخرجت من أمكنتها ونقلت إلى آشور، وحتى القبور الملكية قد دُنِّست وذلك لكي يعاني الملوك العيلاميون الموتى بعد موتهم من الانتقام الآشوري الذي نجوا منه وهم أحياء.

وقد كان آشور بانيبال واضحاً وصريحاً بالنسبة لنواياه فقد قال: "لقد هدمت وأتلفت قبور ملوكهم القدامى والحديثين الذين لم يحترموا إله آشور أو عشتار أسيادي ..

ولقد عرَّضتهم للشمس ونقلت عظامهم إلى آشور ولقد أوقعت القلق في أشباحهم وحرمتهم من تقديم المأكولات وجريان المياه من أمامهم."

ولقد أُخِذَ عدد كبير من الموظفين الكبار وعائلاتهم أسرى إلى آشور وضُمَّت الوحدات العسكرية العيلامية إلى الجيش الآشوري.

وتخبرنا التوراة أن بعض الأشخاص المبعدين من عيلام ومن (سوزا) نقلوا إلى شمال فلسطين.

ولهذا فإن دماء عيلامية تجري في عروق السَّمرة وهم أهالي السامرة في شمال فلسطين.

ولقد أصبح كثير من المناطق، بعد أن أخذ سكانها وحيواناتها كغنائم إلى آشور، خراباً يباباً: "لقد جعلت حقولهم خالية من أصوات البشر ومن خطوات الماشية والأغنام، ومن الأصوات السعيدة في مساكن الحصادين، وبدلاً منها جعلت حُمُرُ الوحش والغزلان وجميع أنواع الحيوانات البريِّة."

ولكن ظهر أن (آشور بانيبال) قد انحرف كثيراً عن السياسة التي اتبعها في بداية حكمه وهي محاولته لتهدئة عيلام عن طريق المساعدات الاقتصادية، فقد

كان تخريبه لعيلام عملاً أسوأ من الأعمال الوحشية، فقد كان من أسوأ التدابير في الحكم.

إذ لم تكن الحيوانات البريِّة التي ذكرها آشور بانيبال والتي أصبحت تترصَّد للدخول إلى تلك القفار التي تركها وراءه، إذ إن القبائل الفارسية التي كانت تضغط للدخول إلى المناطق المحيطة بأراضي مملكة عيلام المهيبة، وكان من عوامل فخرها أن تكمل احتلال تلك المنطقة.

وفي ذلك الوقت كان الفرس لا يزالون أتباعاً للميديين وبناءً على الضغط الآشوري أصبحوا مملكة رئيسية في شمال إيران.

وبعد قرن من الزمان أصبحوا يحكمون ابتداءً من القاعدة التي نجحوا في اقتطاعها من حكام عيلام حتى كامل المنطقة وأكثر من ذلك المناطق التي كانت تابعة للامبراطورية الآشورية.

لقد أصبحت نقوش آشور بانيبال التاريخية قليلة وذلك بعد قيامه بحل المشكلة العيلامية وإن ندرة النقوش الملكية، عندما لا تكون بسبب خلل في الاكتشافات الأثرية (بل بالعكس حدثت هناك حفريات وافرة في الأبنية المرافقة لعهد آشور بانيبال) إنما هو عادة يدل على اضطرابات في عهد الحاكم المذكور أيضاً.

ولدينا نقوشه في اللوحة النقشية البارزة التي تظهر أي نوع من الحكام كان هذا الرجل وأي نوع من الرجال كان.

إلا أنه وبالحكم عليه من هذه الأعمال من الممكن عدُّه أنه قد أصبح طاغية لا يحرِّكه إلا الظمأ إلى الانتقام الشخصي دون النظر إلى الاعتبارات السياسية الرصينة.

هذا وإن إحدى الحوادث الأخيرة التي سجلها كانت معاملته لملك عربي، فقد كان العرب قد ساعدوا أخاه (شاماش-شم-أوكين) عند تمرده في بابل، وقد

نصب آشور بانيبال أحد الأمراء الذين بقوا على قيد الحياة من الذين أظهروا خضوعهم ملكاً على العرب.

وفي النهاية: انضمَّ هذا الملك إلى الأنباط وهم العرب الذين كانوا يسيطرون على الطرق التجارية الواقعة غرب بلاد العرب، وكان انضمامه إليهم مضاداً لرغبات آشور بانيبال.

ولهذا فقد انطلق آشور بانيبال مخترقاً الصحراء جاعلاً دمشق قاعدة له، وانقض على القبائل التي واجهها ونهبها ودمر آبارهم حتى اضطر العرب إلى خلع ملكهم، وأمسك به آشور بانيبال ونقله معه إلى نينوى حيث أذله بأن ربطه من عنقه إلى حجر الكلاب وجعله كلب حراسة عند بوابة المدينة.

لقد كان الملوك الآشوريون الأوائل قساة –نعم- وبلا رحمة، إذ عندما وجد أي عصيان كانوا يقمعونه، وحيث توجد معارضة كانوا يحبطونها، ولكن آشور بانيبال فقط وحده قد وضح التبرير لأعماله في نقوشه الظاهرة.

فهو من جلد وجوه أعداء ميتين، وهو الذي نبش قبور الذين لم يستطع معاقبتهم وهم أحياء.

وهو الذي أبقى على حياة الملوك الأسرى لكي يذلَّهم وهم أحياء، وليس من حق المؤرخ أن يقوم باللوم، لكنه ينبغي أن يسجل الأحداث.

ولكن وجود الأذى كقوة دافعة وراء آشور بانيبال ما هو إلا أحد الحقائق التاريخية، وأن سلوكه كان نوعاً من السلوك الذي يعطي للحرب اسماً بَشِعاً.

لقد كان من عيوب آشور بانيبال أنه لم يكن رجلاً استراتيجياً عظيماً ولا سياسياً ولا جندياً، فقد كان فجاً خالياً من الاستبصار السياسي بقدر ما كان حقوداً في مجال النقمة.

ولسوء حظّه أنه استُدعي لاستلام مهامّ الملك في الوقت الذي كان لديه ميول للدراسة، ومع ذلك فنحن مدينون له بشيء فقد كان الملوك الآشوريون الأوائل يجمعون بعض النصوص القديمة بقصد إنشاء مكتبة، ولكن بالنسبة لآشور

بانيبال قد أصبحت هذه الرغبة غراماً وهو يعطينا الانطباع بأنه كان نوعاً من الرجال الذين يلذ لهم معالجة لوح طيني جيد.

وربما كانت دوافعه ما هي إلا تقدير أسطوري للحكمة القديمة أكثر من حبه للأدب إكراماً للأدب.

إذا إنه حينما كان يسمع بوجود نص قديم كان يطلب إرسال النصوص، أو يحصل على نسخ منها وذلك لأجل مكتبته في نينوى، وهذه النصوص التي بقيت مخبأة في الأرض حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي والتي بقيت منذ اكتشافها مخبأة في المتحف البريطاني، المصدر الرئيسي الوحيد لمعرفتنا الثقافية البابلية والآشورية القديمة.

لقد كان استعمال كلمة مدرسية (أكثر من كلمة (بحثية) متعمّداً، إذ لم يكن هناك أي دليل أن (آشور بانيبال) كان مهتماً بالبحوث.

إذ إن ما كان مهتماً به بالنسبة للنصوص القديمة كان علاقة هذه النصوص باللاهوت والدين والأدعية والصلوات والطقوس ومعاني الفأل الحسن، والتعاويذ اللازمة لطرد الأرواح الشريرة وتجنُّبها.

هذه هي الأمور التي كانت تشغل بال (آشور بانيبال) وكانت المؤسسة الدينية بما لها من المصالح في هذه المنطقة كانت تشجعه لأنه كان يعتمد دوماً على نوع الوحي الذي يريده في أي من المواقف الحرجة، وذلك حسبما كان كثير من نقوشه تروي بالتفصيل.

إن جميع ما علينا الإشارة إليه بالنسبة لما كان يحدث في العقد الأخير من حكمه ما هي إلا بعض الوثائق الاقتصادية التي ليس فيها معلومات كثيرة، فهناك بالحقيقة بعض المعلومات الدينيّة المتعلّقة بآشور بانيبال، وما يذكره عن كونه محاطاً بالمتاعب والتي يمكن أن نفهمها فإنها تعكس تدهوراً في شؤون آشور بانيبال الشخصية.

obeikandi.com

ولكن ليس من الضروري أن تكون تلك النصوص دليلاً على نهاية حكمه، لكنها تُعد مؤلفات رسمية تدعو إلى نوع من الأدب يدعى (أناشيد التوبة) أكثر منها تعابير عن تنبؤ آشور بانيبال شخصياً بمصيره التالي، إذ لم يكن آشور بانيبال رجل سياسة عظيم، وليس من المحتمل أن يكون قد تنبَّأ بالجائحة والزلزال الذي سوف يصيب إمبراطوريته بعد حين.

سقوط الامبراطورية الآشورية

خلال أربعين عاماً من الفظائع التي قام بها جيش آشور بانيبال في عيلام انتهت الامبراطورية الآشورية.

والحقيقة أنه ليس هناك حقائق ملموسة وتتابع مفصل للحوادث التي أنتجت هذا الحدث، وكل ما لدينا ما هو إلا بضعة مؤشرات مبعثرة، مثلاً ذكريات سيدة عجوز، أو أسماء الملوك أو تاريخ بعض الوثائق الاقتصادية أو بعض نصوص متناثرة لمنح ملكية الأراضي، وبعض التلميحات لبعض التواريخ، أو بضع قطع من الفخار منقوشة، أو قطع من النقوش وبعض الأبنية أو بعض التقاليد المحفوظة ضمن السجلات اليونانية بعد بضعة قرون.

وهو أن السيدة العجوز المشار إليها هي والدة نابونيداس وهو أحد ملوك الأسرة البابلية (الكلدانية الجديدة) التي حكمت منطقة ما بين النهرين والغرب بعد سقوط آشور، إذ هناك نصب تذكاري نصب عند موتها يجعلها تقول على لسانها: إنها قد عاشت ابتداءً من السنة العشرين لحكم آشور بانيبال ملك آشور (كان تاريخ مولدها عام ٦٤٩ ق.م) حتى السنة الثانية والأربعين من حكم آشور بانيبال، والسنة الثالثة والأربعين لحكم آشور-ايتللو-ايلي ابنه، والسنة الحادية والعشرين لحكم نابوبلاسر، والسنة الثالثة والأربعين لحكم نيبوشاوريزير، والسنة الثانية لحكم أميل-مردوف، والسنة الرابعة لحكم فيري جليسار طوال خمسة وتسعين عاماً.

وحتى استلم ابنها العرش عام (٥٥٥)ق.م إن هذا يثبت تاريخ وفاة آشور بانيبال في عام (٦٢٧)ق.م وهو واحدة من الحقائق الأكيدة للتاريخ النهائي للإمبراطورية الآشورية، والحقائق الأخرى المتعلقة بهذه الفترة من الممكن إيجازها بما يلي:

١- بعد وفاة شماس - شم - أوكين أصبحت بابل تحت حكم رئيس صوري يعرف باسم كاند لانو.

٢- لقد خلف آشور بانيبال ابنه آشور – ايتيللي- ايلي الذي بدأ حكمه قبل عدة سنوات من وفاة آشور بانيبال

٣- لقد حدثت اضطرابات واسعة خلال الإمبراطورية، ففي فلسطين كانت هناك الأنشطة الإصلاحية التي قام بها الملك يوشع ملك يهوذا عام (٦٢٩) ق.م وكانت تشمل بند رموز العبادة المرافقة للآشوريين وربما اشتملت عناصر من الشعور المناهض لآشور، بينما كان هجومه على الأراضي المجاورة دون التدخل الآشوري تعكس وجود الصعوبات التي واجهت آشور بالنسبة للنظام وذلك الوقت الذي يعود تاريخه ربما إلى عام (٦٣٤ ق . م) وما كان يعرف عن حركات الشعوب القبلية الشمالية والتي كانت تهديداً لفلسطين، وقد حدثت تمردات أخرى بما فيها تمرد قائد عسكري يدعى سن – شم – ليشير الذي كان يعمل على اعتلاء العرش .

٤- تم قبول ولد آخر من أبناء آشور بانيبال وهو شن – شا – ايشكون ملكاً لآشور خلال معظم الفترة التي تلت وفاة والده حتى عام (٦١٢ ق . م).

٥- أعلن أحد الأمراء الكلدانيين وهو نابوبولاستر ملكاً على بابل عام (٦٢٦) ق.م ولكنه لم ينجح بشكل كامل وبسرعة للسيطرة على كل بابل.

٦- لقد سقطت نينوى عام (٦١٢ ق.م) تزودنا هذه المعلومات بمادة تاريخية تشبه أحجية الصور المجزأة والتي -ونظراً لكثرة عدد القطع المفقودة- يمكن جمعها معاً بطرق مختلفة، وإن إعادة ترتيب المحاولات لتناسب المعطيات الأكيدة، دون القيام بافتراضات، ليس لدينا براهين إيجابية لها.

ولقد حدثت اضطرابات (كما حدث في يهوذا) في أواخر نهاية حياة آشور بانيبال، ولقد باشر آشور – ايتللو- ايلي الحكم إما كي يريح والده المسن والمنهك القوى أو نظراً لطموحه الشخصي، وذلك حوالي عام (٦٣٠ ق.م).

وعند وفاة آشور بانيبال عام (٦٢٧ ق.م) اندلعت التمردات الحقيقية، فقد كان هناك نزاع للحصول على السلطة المركزية أولاً: في بابل أزيح بنتيجته (كاند لانو) ملك بابل عن العرش (إذ كان الأنا؟؟ الثانية لآشور بانيبال) وقد كان آشور –ايتللو- ايلي يحاول الاستيلاء على بابل من خلال مساعدة أحد القواد الموالين له.

وبعد ذلك عين سن شم ليشير ملكاً موالياً.

وفي نفس العام (٦٢٧) ق.م حصل ابن آخر من أبناء آشور بانيبال وهو سن – شار – ايشكين، ومن الممكن أن يكون توأم آشور –ايتللو- ايلي ، قد حصل على دعم إحدى الحاميات الآشورية في بابل، وقام بانقلاب نجح مؤقتاً، إذ استولى بعده على بابل وادعى حقه بالملك.

ولذلك فقد تحرك أحد الأمراء الكلدانين وهو نابو بولاسر خليفة بيروداك - بالادان في طموحه أو ربما بنسبته (مع أنه ليس لدينا إثبات على ذلك) وكان هذا قد أعلن نفسه ملكاً على أراضي المستقعات الجنوبية التابعة للقبائل، وتحرك شمالاً لطرد سن -شار- ايشكين ولكي يؤكد ادعاءه بحقه في ملك بابل، ولكن كان لا يزال هناك قوى آشورية منتشرة في بابل، واستمر سن –شار- ايشكن بالسيطرة على بعض المدن البابلية ولاسيما (نيبور) وإيديسن حتى (٦٢٠ ق.م) وحتى بعد ذلك.

ليس لدينا أي معرفة لما كان يجري لآشور –ايتللو- ايلي أو حتى عن موته، ولكن نعلم أنه لم تكن له أي سيطرة فعلية على بابل حتى عام (٦٢٧)ق.م ومن الواضح أنه وفي عام (٦٢٣) ق.م وبالتأكيد ومن الممكن أن يكون ذلك في أوائل (٦٢٦) ق.م فقد أعلن سن –شار- ايشكن نفسه ملكاً على آشور بدلاً من أخيه، وفي أثناء ذلك عمد نابوبولاستر -رغم الانتكاسات- إلى مد سلطته على جميع بابل، وكان أيضاً قد اتخذ الإجراءات لاكتساب بعض الحلفاء في الخارج، وبعد

obeikandl.com

اعتلائه عرش بابل، أعاد إلى (سوشه) الآلهة الغيلامية التي نهبها الآشوريون سابقاً، وكانت هذه وسيلة لشراء النية الحسنة.

وفي عام (٦١٦) ق.م أصبح نابو بولاسر في وضع ساعده على اتخاذ موقف الهجوم ضد آشور، مع أن تحركاته ومبادراته لم تكن أكثر من بعض المحاولات لتعديل الحدود التي كانت مجال خلاف بين بابل وآشور وذلك لمصلحة بابل، وتذكر بعض المصادر أنه قد حدثت بعض الصدامات التي تدل أن آشور كانت تحصل على دعم كل من مصر والمانيين في شمال غرب إيران.

وفي السنة التالية تحرك نابوبولاسر شمالاً نحو نهر دجلة ووصل العاصمة القديمة آشور، ولكن تقدمه كان قبل الأوان وقد أجبر على الانسحاب إلى تكريب، حيث وضع هو نفسه تحت الحصار، وهكذا برهن الآشوريون أنهم لا يزالون قادرين على اتخاذ موقف الهجوم، ولكنهم أجبروا على التراجع الذي يظن أنه كان نتيجة لسماعهم خبر هجوم سريع من قبل الميديين، والذي حدث فيما بعد في نفس السنة في جنوب شرق آشور، ومن هناك وفي عام (٦١٢) ق.م تحرك الميديون ووصلوا إلى قلب آشور واحتلوا كلا تاربي (وهي شريف خان الحديثة) وهي قلعة على بعد نحو خمسة أميال إلى شمال شرقي نينوى التي سيطرت على مواصلات العاصمة مع الشمال والغرب.

وكذلك كان الحال مع العاصمة القديمة آشور وتذكر إحدى التواريخ أن جيش نابوبولاسر وصل بعد سقوط آشور، ولكنه لم يشترك في هذا السقوط.

ومن الممكن أن يكون ذلك صحيحاً، ولكن من المحتمل أن يكون هذا قد ذكر لتبرئة نابوبولاسر من اللوم والاستهجان الديني لنهب تلك المدينة التي كانت مركزاً دينياً محترماً.

ولقد عقد نابوبولاسر والميديون الذين كانوا يعملون بشكل مستقل معاهدة تحالف رسمية عند اجتماعهم في آشور.

وكانت آشور لا تزال تملك بعض الحلفاء، وفي عام (٦١٣ ق.م) قامت الشعوب القبلية الساكنة على طول الفرات الذين طالما قاموا باضطرابات في الماضي ضد

obeikandl.com

آشور، نرى الآن تلك الشعوب تتمرد ضد نابوبولاسر، ولقد كان هذا التمرد القبلي طبقاً للتحالف مع آشور، وذلك لأنه وبينما كان نابوبولاسر يحاصر إحدى المدن المتمردة وصل جيش آشوري وأجبره على رفع الحصار والانسحاب إلى بابل.

وهنا تبرز أمامنا بعض المشكلات: إذ كيف استطاع الآشوريون جمع جيش على الفرات ذي قوة كافية لإجبار نابوبولاسر على التقهقر عندما كان الآشوريون في السنة السابقة في ضيق عظيم بحيث استطاع الميديون الاستيلاء على مدن في طرف الدولة.

فربما كان هناك شيء يعمل على كبح جماح الميديين (وهذا افتراض تخميني دون وجود أي شهادة تثبته) أو أن الميديين كانوا مجبرين على الانسحاب لمواجهة تهديد آخر، ومن المحتمل أن يكون هذا التهديد آتياً من (الأسكديين) الذين أتوا من الأناضول ومن شمال غربي إيران خلف السيميريين، وكانت لهم علاقات ودية مع الآشوريين منذ عهد أسرحدون، وهناك روايات تفيد أن الميديين قد تفرقوا تحت ضغط الأسكنديين بشكل كبير، وربما كان هذا التهديد سبباً في الانسحاب المؤقت للميديين من آشور عام (٦١٣ ق م).

ولا تذكر السجلات البابلية في تلك الفترة شيئاً عن الأسكنديين ولكنها تذكر شعباً يدعى (الأومان ماندا).

ربما كان هذا الاسم يدل على بعض التجمعات القبلية التي كان الأسكنديون جزءاً منها وتسكن في الشمال.

وتذكر الروايات اليونانية أن الأسكنديين قد تحالفوا مع الميديين، ومن الممكن أن يكون نابوبولاسر عضواً في هذا التحالف نظراً لأنه وفي عام (٦١٢) التحق (بالأمان ماندا) والميديين وشاركهم في حصار نينوى. ولقد سقطت المدينة خلال ثلاثة أشهر. وهذا أمر مستغرب، إذ إن هذه الفترة قصيرة، نظراً لأن مدينة بابل قاومت الجيش الآشوري الماهر في فنون الحصار لمدة تزيد عن سنة، وتتفق الروايات اليونانية مع التوراة في وصف هالة السرور والغبطة عندما سقطت نينوى مع ما كان فيها من وسائل الدفاع الضخمة.

obeikandl.com

ولكن هذا السقوط أصبح حتمياً بعد حدوث الطوفان، ولم يكن هذا الطوفان ناتجاً عن نهر دجلة بل عن رافد له يدعى (خوسر) فقد كان طوفان خوسر الذي كان يجري في وسط المدينة سبباً في إتلاف قسم كبير من وسائلها الدفاعية، مما ساعد دخول المحاصرين وقد نهبت المدينة وسلبت ومات سن-شار-أيسكين أثناء ذلك الدمار.

لم ينته أمر الآشوريين بعد، فقد هرب الناجون من الموت إلى حَرَان حيث أعلن آشور-أباليت ملكاً، وكان هذا من العائلة المالكة.

وفي أثناء ذلك كان الميديون والأومان مانديون قد انسحبوا، ولقد سارع نابوبولاسر الذي أصبح يتنافس مع حلفائه السابقين لنيل وراثة الإمبراطورية الآشورية المتداعية، سارع إلى تقوية مركزه في آشور فاحتل المنطقة الغربية حتى نقيتين، وقضى على جيوش المقاومة داخل آشور نفسها.

وهذا وفر مدة سنتين لآشور أباليت لكي يعيد تنظيم قواته في حَرَان التي طلب وهو فيها المساعدة من مصر.

ففي عام (٦١٠) ق.م عاد شعب (الأومان ماندا) إلى منطقة ما بين النهرين، وذلك لضمان المصالح البابلية هناك، عندها انسحب أباليت ليلتقي بالحلفاء المصريين القادمين.

وبعد محاولة لاستعادة حَرَان أقامت قوى التحالف الآشوري المصري قاعدة لها في كركميش.

وفي هذه الأثناء حدث هناك بعض التغيرات بالنسبة لملك مصر، فقد قرر الفرعون الجديد نخو الثاني (٦١٠-٥٩٥) ق.م تقديم الدعم المتزايد لآشور أباليت، وقاد الجيش المصري إلى سورية.

ويبدو أن الدبلوماسية الكلدانية قد فعلت فعلها بنجاح في فلسطين فلم يكن نخو الثاني يجبر على إخماد انتفاضة في غزة فحسب (أرميا ١٠-٤٧) بل إن حوشيا ملك يهوذا قام بمحاولة مميتة بالنسبة له لضرب القوى المصرية بحدود عام (٦٠٨

obeikandl.com

ق.م)(ملوك ٢٣ : ٢٩) على الرغم من هذه المعوقات فقد أوصل نخو جيشه إلى القاعدة الآشورية المصرية الرئيسية في كركميشن.

ولكن حدثت الآن كارثة لمصر، إذا إنه وحتى هذا الوقت لم تكن أي الجيوش الكلدانية تبدي براعة عسكرية، وكانت نجاحاتها تتوقف على الحرب الأهلية الآشورية، وبعد ذلك كانت تتوقف على الدعم الذي كان يأتيها من الميديين ومن (الأومان ماندا) ولكن حدث الآن أن استفادوا من خدمات أحد القواد ذوي المقدرة المرموقة وهو (نيبوشا درميزر) وهو ابن نابوبولاستر.

ففي عام (٦٠٥) ق.م سلّم نابوبولاستر صلاحياته في حكم بابل لابنه نيبوشا درميزر الذي قاد جيشه إلى أعالي الفرات للقيام بهجوم مباشر على الجيش المصري القوي في كركمش.

وقد سجل (أرميا) الحادث كما يلي:

إن إله الجنود يود تقديم ضحية.

في البلاد الشمالية إلى جانب نهر الفرات.

آه أيتها البنت المصرية العذراء.

لقد سمعت الأمم بما لحق بك من عار.

ولقد امتلأت السماء بصراخك.

وذلك لأن المحارب قد اصطدم بمحارب.

وقد سقطا معاً.

ومع أن الأبيات الأخيرة تشير أن كلا الطرفين قد لاقيا مذبحة ثقيلة الوطأة، إلا أن الجيش المصري هو الذي واجه انكساراً معنوياً.

وهنا يصور أرميا الرعب والهلع أثناء هروب الناجين من الموت ورجوعهم إلى مصر.

لقد هزم محاربوهم

obeikandl.com

وهربوا بسرعة

ولم ينظروا إلى الوراء

لأن الرعب كان يحيط بهم من كل جانب (٤٦:٥٠)

ولم نسمع شيئاً بعد ذلك عن آشور أباليت أو عن أي واحد من الناجين من جيشه، وبعد اندحار الجيش المصري من آشور الأخير، انتهت الإمبراطورية الآشورية.

وبعد اندحار المصريين سقطت سورية وفلسطين بيد نيبوشا درميزر.

وفي نفس السنة ورث عن والده العرش فظهر ملك جديد في إمبراطورية جديدة، وأصبحت العاصمة العالمية هي بابل بدلاً من آشور.

obeikandl.com